مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة الثامنة، العدد الرابع عشر، ربيع وصيف ١٤٣٣هـ
صفحة ٦٧ – ٨٩

# دراسة ملامح من حب الوطن في شعر معروف عبدالغني الرصافي

**مصطفى شيروي خوزاني***
أستاذ مساعد بجامعة قم

(تاريخ الاستلام: ٩٠/٣/٢٢ ؛ تاريخ القبول: ٩٠/٨/١٢)

## الملخّص

يُعتبر الشاعر الشهير العراقي المعاصر، معروف عبدالغني الرّصافي (١٨٧٥-١٩٤٥)، من الشّعراء الذين بذلوا موهبتهم الشّعرية والأدبية في سبيل الدفاع عن وطنهم وإصلاح مجتمعهم. استخدم شعره إعلانا عن مواضع الدّاء في المجتمع العراقي ويطلب الدواء لها ويستحثّ أبناء شعبه في سبيل ردم الهوة التي أحدثها الاستعمار والاستبداد في مجتمعه. فرأى أنّ على عاتقه أن يوضّح للشعب العراقي أسباب تخلف وطنه ويريه سبيل التّخلص مما هو فيه من الضعف والاستسلام أمام الأعداء. فبحث في شعره عن مواضع التخلف في مجتمعه وحاول إيقاظ أمته في سبيل الوصول إلى إصلاحها.

هذا المقال يبين ملامح من حبّ الوطن في شعر الرصافي، وهو الحبّ الذي يتجلى في التزام الشاعر للدّفاع عن الوطن وردّ فعله، لما يرى فيه من الأحوال السيئة وفي هذا الإطار يدرس وُجُهات نظره إزاء مجتمعه ويتكلم عن التزامه لوطنه. الالتزام الذي يتبلور في رؤية الشاعر إلى مظاهر التخلف الاجتماعي في الوطن، كالأحوال السيئة وغير المرضية للنساء والأطفال واليتامى في المجتمع العراقي، وفي دعوته إلى العلم والحريّة والاتحاد ونبض الخلافات المدمّرة في سبيل الوصول إلى حياة أفضل وأعلى مما فيه أبناء شعبه. فيدرس المقال، هذه المواضيع في ديوان الرّصافي ويستشهد بأشعار الشاعر في هذا الإطار مُبيّناً مواضع الشاعر ووجهة نظره إزاء كل ما يحدث في مجتمعه، وفي النهاية يثبت بأنّ الشاعر يعدّ من الشعراء الملتزمين الذين بذلوا أدبهم وشعرهم وكل ممتلكاتهم الأدبية والمادية في سبيل الدفاع عن الوطن، ويوضّح الطريق أمام الذين يريدون أن يكتبوا حول الشاعر أكثر، مما جاء في هذه الدّراسة وخاصة الدّراسة التطبيقية بين الشاعر وبين الشعراء الملتزمين الإيرانيين الذين كانت بينهم وبين الشاعر الصلات الوثيقة في هذا الموضوع.

## الكلمات الرئيسية

الرصافي، الشعر، حب الوطن، الالتزام.

---

* هاتف الكاتب: ٠٩١٢١٥٣٦٩٣٧
Email: msheravi3000@yahoo.com

**مقدمة**

كان العرب يعيش قبيل عصر النهضة في انحطاط مظلم وطال نومهم في هذا الوضع المؤسف، ولكن بعد انتظار طويل ونوم عميق في ليل طويل من الضعف والتخلف، أخذت شمس عصر النهضة بالشروق، ففي سنة ١٧٩٨م خرج العرب من ليلهم المظلم وبدأوا يخطون في طريق الحضارة والتقدم. فالذي يدفع الشعراء في عصر النهضة إلى الالتفات بقضايا جمهورهم هو أوضاع المجتمع في زمنهم. فبدأ الشعراء بالخروج من قصور السلاطين والحُكام وأخذوا ينشدون أشعارهم فيما يتعلق بالمجتمع والناس. هذا وبدأ العرب يخرجون مما هم فيه من الخمول والكسل والتّخلف، وبدأوا نضالاً سياسياً واجتماعاً واقتصادياً وصولاً إلى ما يريدونه، أما الأدباء فأرادوا أن يدخلوا في هذا النضال الشعبي ورأوا أنّ على عاتقهم إيقاظ أمتهم ووعيهم وتفتح عيونهم أمام ما يقع في مجتمعهم، فالأدباء في عصر النهضة أبوا «إلاّ أن يكونوا من هذا العالم... فأدركوا أنّ لهم الحق أن يشاركوا في إيديولوجيته الحديثة... وهو ما نسمّيه هنا بالعصر النهضة التي بدأت بمجهود الأدباء الذين كانوا الفصيل الطبيعي وقادة الفكر في زمنهم» (البقاعي، ١٩٩٠، ص٧).

في هذا الوقت وضع الشعراء والكتاب حجر الأساس لأدب عصر النهضة وتطرقوا إلى الموضوعات التي تتعلق علاقة وثيقة وتامة بالمجتمع. فالأديب الحقيقي لا يستطيع أنْ يرى اضطهاد الحكام الظالمين على الناس من حولهم، ولا يطيق أن ينظر إلى فقر الناس وعوزهم وفاقتهم و... دون أن يتكلم حول هذه الكوارث البشعة، ولا يستطيع أن يمرّ مكفوف العينين على هذه الفجائع في مجتمعه. فكان معروف الرصافي في طليعة هؤلاء الشعراء ويمكن أن نقول كانت علاقته بالمجتمع الذي عاش فيه وثيقة، فوقف شعره وقفاً لهذا المجتمع ولاحظ ديوانه مشحونا بالأشعار الاجتماعية والسياسية والوطنية. فهو حاول «أن يستخدم الشعر الذي كانوا يعرفونه في أيامه أنه الكلام الموزون المقفى وسيلة إلى غايات وأهداف إنسانية ـ اجتماعية هي: إسعاف المنكوبين ورعاية الأيتام وإغاثة الأرامل وتحرير النساء وتهذيب النفوس ونشر العلم ومحاربة الفقر والأسقام والقضاء على الجشع وتوحيد القلوب، أخيرا على البر والإحسان على عمل الخير ونبض الخلافات المدمّرة» (شرارة، د.ت، ص٤٧).

هذ المقال يحاول أن يبحث عن ملامح من حب الوطن في شعر الرصافي ويبين مدى تأثير

الشاعر في مجتمعه وتأثّره بما يحدث فيه. هناك بعض الأسئلة يريد المقال أن يجيب عنها وكانت من أهمها:

١. ما هي كيفية تعامل الشاعر مع أحداث مجتمعه؟

٢. إلى أيّ مواضع يتطرق الشاعر في شعره؟

هنا يجدر الإشارة إلى أنّ مؤلفي المقالة هذه وجدوا كثيرا من المقالات وبعض الكتب التي كتبت عن الرصافي وحياته وشعره في إيران والبلدان العربية عبر الإنترنت والمكتبات الموجودة في مدينة قم، ولكن رغم محاولات كثيرة، لم يوجد كتاب ولم يُشاهَد مقال تبحث بصورة مخصّصة ومختصّة عن آراء الشاعر ومواضعه الوطنية، فكان هناك فراغ كبير في هذا الموضوع، وجدير بالاهتمام بكتابة مقال حول آراء الشاعر الوطنية ودراسة ملامح من حب الوطن في شعره، لكي توضح عقائد الشاعر في هذا الصدد للقرّاء أولا وتمهّد الطريق للذين يريدون أن يكتبوا حول الشاعر في البحوث المتعلّقة بموضوع هذا المقال ثانيا وإرشادهم إلى بعض الدراسات التطبيقية بين الشاعر وبين بعض الشعراء الإيرانيين الذين نرى بينهم وبين الشاعر بعض المشابهات في حب الوطن وفي المواضيع السياسية والاجتماعية المشتركة في أشعارهم، نخص بالذكر من بينهم ملك الشعراء بهار ونسيم شمال ونيما يوشيج في أشعارهم الاجتماعية.

## حياة الرصافي

ولد معروف عبدالغني الرصافي في حيّ الرصافة في الجانب الشرقي من مدينة بغداد سنة ١٢٩٢هـ «في أسرة متوسطة الحال. كان أبوه من عشيرة كردية تقطن في نواحي كركوك تُسمّى الجبارة» (بطي، ١٩٢٣، ص٦٩). فهو «كان جنديا متدينا كثير الصلاة، كثير الأسفار والتنقلات في مهمات عسكرية، ولم يكد يألف البيت الزوجي. وامّا والدته فهي فاطمة بنت جاسم من أسرة عربية متوسطة الحال» (بقاعي، ١٩٩٤، ص٢٥).

تَلقّى الرصافي دروسه الابتدائية في الكتاتيب وفي إحدى مدارس الرصافة، ثم ذهب إلى المدرسة الرشدية العسكرية دون أخذ الشّهادة، ثمَّ تتلمذ عند العلامة محمود شكري الآلوسي في علوم اللغة العربية وما يرتبط بها، حوالي ثلاث عشرة سنة. بعدئذ اتجه إلى التدريس في المدارس الابتدائية وفي مدرسة الإعداد العسكري، وظل في هذا العمل حتى أعلن الدستور عام ١٩٠٨م، فذهب إلى الآستانة وانتُخب مُدرّساً للعربية «في المدرسة الملكية الشاهانية وللإسهام في تحرير مجلة (الإرشاد) وانتخب نائباً عن لواء المنتفق في مجلس المبعوثان العثماني»

(الفاخوري، ١٩٩١، ج٤، ص٥٧٢)، ثم ترك الآستانة وفي عام ١٩٢١م بعد الحرب العالمية الأولى وحين تألفت الحكومة العراقية المؤقتة، استدعته الحكومة وعينته نائباً لرئيس لجنة الترجمة والتعريب في وزارة المعارف. ثمَّ انتُخب عضوا في مجلس النّواب خمس مرات خلال ثمانية أعوام. زار مصر سنة ١٩٣٦م وصمّم على المقاومة والكفاح ضد الاحتلال البريطاني وبعد فشل أحلامه عاش في شبه عزلة عن الناس في بيته وانتابته العلل والأمراض. حيث يصف الجواهري حال احتضاره قائلا: «انتهى الرّصافي مساء يوم ١٦ آذار من عام ١٩٤٥م في تلك الغرفة الجرداء التي لا أنساها أبداً، وكان أمامي ممددا على سرير من السرر الرخيصة... فأتحدث إليه آخر حديث قبل أن يموت. وقد انقضى عصر الرّصافي في هذه الغرفة الجرداء، ولم يسدل عليه ستار... وأحلف صادقا أنه لم يكن في غرفة صاحب هذا الجيل ستار أو غطاء يمد عليه» (أبوحاقة، ١٩٧٩، ص٢٠٥). فتُوفّي عام ١٩٤٥م.

### ملامح من حب الوطن في شعر الرصافي

كانت الأوضاع الاجتماعية وأحوال المجتمع في زمن الرّصافي سيئة للغاية، فخيم الجهل والحرمان والفقر والفاقة على البلاد وكان كثير من المفاسد الاجتماعية مسيطرا على المجتمع لسوء إدارة البلاد من قبل القوى الحاكمة على العراق، سواء كان في العهد العثماني أو في عهد الاحتلال البريطاني أو في عهد الانتداب، فكان الجهل مخيما على الناس والأمراض شائعة ومنتشرة في أنحاء البلاد وكان يعيش الناس في الفقر والفاقة. وبما أنّ الرّصافي كان شاعراً ملتزماً صاحب نزعة إنسانية قوية وشعور قومي قوي، لم يستطع أن يتحمل هذه الكوارث الإنسانية والاجتماعية في مجتمعه، ولم يتمكن أن لا يتطرق إليها في أشعاره فـ«يقف الرّصافي مع شعراء مصر؛ كأمثال صبري وحافظ... وشعراء العراق؛ كأمثال الزهاوي والكاظمي و... لأنّ هذه الطبقات من الشعراء أثّرت في الشعر العربي المعاصر وجعلته يعبر تعبيرا صادقا عن كل ما يتعلق بالمجتمع العراقي في جميع شؤونه ومشاكله وآماله...» (الخفاجي، ١٩٩٢، ج١، ص١٤٣).

فهو كان «شاعرا مصلحا ثائرا على تقاليد المجتمع البالية، فكان صدى صادقا لرغبات المجتمع، فهو انتقد الحياة التي يحياها الشعب، سواء من الرجال أو النساء وثار على أسلوب هذه الحياة...» (عزالدين، ١٩٨١، ص٥٣)، وكان يتطرق في أشعاره إلى موضوعات المجتمع الاجتماعية، فيدعو إلى العلم وإنشاء المدارس، ويتطرق إلى الفقر والسقام ويعالج أمراض المجتمع، فيرى مشاهد البؤس والألم في وجوه الأيتام والأيامى والأرامل والفقراء والمعوزين

ولم يقف مكتوف الأيدي أمامها، بل يعالجها في أشعاره وليس هذا شأن الرّصافي ولا غير، بل «أخذ الأدباء في هذه المرحلة أي مطلع عصر النهضة يتأثرون بشقاء الإنسان، وتهز وجدانهم مشاهد البؤس، فلذلك صوّروها في مظهر تعاطف مع الضعفاء واحتجاج على الظلم والفقر، وقد تميزّت معالجتهم لمشكلات الشقاء بروحها الإصلاحية، إذ كان الأدباء يتوجّهون إلى الحكام، يستصرخون ضمائرهم للعمل على تخفيف وطأة الشقاء عن هؤلاء المساكين...» (عيسى وآخرون، ١٩٩٠، ص١٢٤).

كما مرّ بنا كان الرصافي من أبناء الوطن الملتزمين أمام كل حادث كبير أو صغير يحدث فيه، فهو لا يقف مكتوف الأيدي ومكفوف العينين إزاء ما رآه في مجتمعه من الضعف والتخلف والجهل، بل تزعجه أحوال مجتمعه وما يراه فيه، ويسعى محاولا إصلاح كل ما فيه من الأمراض والآلام الاجتماعية. وفي هذا السبيل لا يخاف من لوم اللائمين ومن اضطهاد الغاشمين والظالمين. فالرصافي إذن «كان فيلسوفا وبحّاثا ومربيا وسياسيا وداعي إصلاح اجتماعي في آن واحد» (شرارة، د.ت، ص٥٠٦). يقول الشاعر في وصيته: «كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية، وإنّما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه، والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم؛ فلذا لم أوافق إلى شيء في حياتي يُسمّى بالرفاهية والسعادة في الحياة» (بقاعي، ١٩٩٤، ص١٢).

أما المواضيع التي تطرق إليها الرصافي في شعره فيمكن أن تقسم إلى الأمور التالية:

المرأة وما يتعلق بها في العراق؛ كارثة اليتم في المجتمع العراقي؛ الأطفال وأوضاعهم في العراق؛ الدعوة إلى الاتحاد؛ الدعوة إلى العلم؛ الدعوة إلى الحرية؛ الاشتراكية؛ اللغة العربية؛ ماضي العرب ومستقبلهم؛ مشكلة الفقر في المجتمع.

فكان الشاعر يعالج في شعره هذه الأمور التي تعد برمّتها من الموضوعات الاجتماعية الوطنية ويبين رأيه فيها ويسعى محاولا لكي يوضح لأبناء شعبه مواطن الداء والدواء في كل ما رآه من الضعف والتخلف الاجتماعي والسياسي بينهم. فجعل من شعره منبراً يعلن فيه عقائده وآرائه فيما يتعلّق بإصلاح مجتمعه، فنبحث في أشعاره عن هذه الموضوعات ونحاول أن نوضح عقيدة الشاعر مع الاستشهاد ببعض أبياته فيها.

الدعوة إلى الاتحاد

حبّ الوطن يُشجّع الإنسان للدّعوة إلى الاتحاد، فلذلك يعدّ الرصافي الاتحاد والتعاون بين

أبناء الأمة وسعيهم للوصول إلى المرامي البعيدة والآمال المأمولة، من الموضوعات الاجتماعية التي عالجها في قصائده وأشعاره، فيقول في ديوانه:

هِمَمُ الرّجالِ مَقيسَةٌ بِزَمانِها ... وسَعادَة الأوطانِ في عُمرانها
وأساسُ عُمرانِ البِلادِ تعاونٌ ... مُتواصِلُ الأسبابِ من سُكانها

(الرّصافي، ١٩٨٦، ج١، ص٤٦)

فسعادة المجتمعات والأوطان ما تُحصل إلاّ مع عمرانها وأساس عمران البلاد تعاون أبناءها للوصول إليه. فهو في قصيدة عنوانها «الحياة الاجتماعية والتعاون» يدعو إلى الاتحاد والتعاون في الحياة:

يَعيشُ الناسُ في حالِ إجتماع ... فتحدثُ بَينَهُم طُرُقُ إنتفاع
كذاكَ الناسُ مِن عَجَمٍ وعُربٍ ... جميعاً بَينَ مَرعي وراع
قَد إشتبَكتْ مَصالحُهُم فكُل ... لكلٍّ في مَجالِ العَيش ساع
ولولا سَعي بَعضِهم لبَعضٍ ... لعاشوا عَيش عادية السباع
وما مَدنيّةُ الأقوام إلاّ ... تَعاونُهم على غُرّ المَساعي

(م.ن، ص٢٣٥)

فالناس يعيشون معاً في المجتمع وينتفع بعضهم من بعض ويستفيد واحد من آخر، وهكذا يشكل المجتمع الإنساني ويكثر التعاون والتعاضد بينهم، وكثيراً ما عادة السفلة من الناس وأغبيائهم تجعل الحياة بعيدا عن المجتمع الإنساني. والرّصافي يشبّه في بعض أبياته الحياه الاجتماعية والتعاون بين الناس فيها ببنيان يشكل من الأحجار التي يمسك بعضها بعضا، ويسبب تقوية البنيان أكثر فأكثر ويمنع من خرابه وانهياره، فمن ميزات المجتمع الإنساني وخصائصه، التعاون والاتحاد بين الناس للوصول إلى الأهداف السّامية والغايات العالية والإنسانية. لذالك يدعو الرصافي في أشعاره إلى الاتحاد القومي، كما يدعو إلى الاتحاد الديني بين المسلمين وأبناء سائر الأديان في المجتمع العربي، فهو في قصيدته «إلى إخواننا المسيحيين» يوصي بالاتحاد بين المسلمين والمسيحيين ويبعدهما من الاختلاف والفرقة إذ يقول:

عَلام التعادي لاختِلاف ديانةٍ ... وإنّ التعادي في الدّيانَة عُدوان
وما ضَرَّ لو كانَ التعاوُنُ دينَنا ... فتعمُرَ بُلدانٌ وتَأمنَ قُطّان
إذا جَمَعتنا وَحدَةٌ وطنيّةٌ ... فماذا عَلينا أن تَعَدَّدَ أديان

(م.ن، ص٣٦٦)

فالذي يدعو إليه الشاعر في هذه الأبيات هو نبذ الاختلاف في الديانة وبناء بنيان المجتمع على أساس المؤاخاة والصداقة، ثم يطرح سؤالاً واضح الجواب، ويقول: إذا كان التعاون دين أبناء المجتمع وإذا جمعت الوحدة الوطنية بين أبناءه فما هو ضرر تعدد الأديان؟ يبين الرصافي في الحقيقة لنا بهذا السؤال و بجملة «فماذا علينا أن تعدد أديان» رأيه في تعدد الأديان والاتحاد الوطني والبُعد والتجنب من هذه الاختلافات. مثل هذه القصائد التي يدعو فيها الشاعر أبناء وطنه إلى الاتحاد، شائعة منتشرة في ديوان الشاعر، منها: «نحن على المنطاد» (م.ن، ص٤٦)، «سوء المنقلب» (م.ن، ص٣٠٤)، «من ويلات الحرب» (م.ن، ص٥٨٧)، و «إلى أبناء الأمة العربية» (م.ن، ج٢، ص٢٤٥).

اللغة العربية

الاهتمام باللغة هو الاهتمام بالوطن، فعلى رأي الشّاعر، اللغة العربية تعتبر من أسباب اتحاد العرب طيلة حياتهم، فهي كانت حبلاً متيناً اعتصم العرب بها جميعا بالرغم من عوامل التمزيق والعدوان التي كانت سببا لتفرقتهم، فهذه اللغة هي العامل الرئيس في اتحاد العرب وعدم تمزيق شملهم طول التاريخ. يقول عمر الدقاق: «أما كون لغة الضاد جامعة اللسان وإحدى المقومات الرئيسية للشعور القومي والرابطة الأساسية بين الشعوب العربية، فقد عبر الشعراء عن ذلك الجانب تعبيرا واعيا يفوق ما كان منهم تجاه المقوّمات الأخرى للقوميّة العربية... وقد نجد في الشعر القومي عنصر اللغة مصاحبا عنصر العقيدة الإسلامية في بعض الأحيان وبخاصة لدى الجيل المتقدم من الشعراء، من مثل شوقي وحافظ والرّصافي والزهاوي والكاظمي» (الدقاق، ١٩٨٥، صص٢٣٣-٢٣٤). الرّصافي في قصيدة عنوانها «في سبيل الوطن» يخاطب أبناء أمته من المسلمين والمسيحيين ويقول لهم:

إذا القـومُ عَمّتـهم أمـورٌ ثلاثـةٌ ... لِسـانٌ وأوطـانٌ وبِـاللهِ إيمـانُ
فـأيّ اعتقـادٍ مـانِعٌ مِـن أخـوّةٍ ... بهـا قـال إنجيـلٌ كمـا قـال قُـرآن

(الرّصافي، ١٩٨٦، ج١، ص٣٦٦)

فيعتبر اللسان أحد مقومات الاتحاد ودعائمه في المجتمع وبين أبناء الوطن الحبيب.

الدعوة إلى العلم

عيّن الرّصافي طريقه في الحياة ومشى في هذا الطريق، يعني العيش لسعادة المواطنين والسير في طريق وصولهم إلى حياة أفضل وأعلى وبيان همومهم وآمالهم وأحزانهم

واستنهاض نفوسهم أمام الأعداء والهجوم على كل ما يهدد نظامهم وكيانهم وممتلكاتهم حبّاً للوطن. فهو بنظرته الثاقبة ووعيه وثقافته العميقة وحسه الرقيق المرهف يرى مواضع الداء، فيبينها لأبناء مجتمعه ويشير إلى الدواء التي ترفع الداء وهذا شأنه وطبعه طوال حياته. من هنا نشأت نزعة الشاعر العلمية ودعوته إلى تحصيل العلم في المجتمع والشنِ على الجهل والجهالة والتعصب، فهو يرى أبناء مجتمعه وهم يعيشون في ظلام الجهالة والتعصبات الهالكة، فرأى أنّ على عاتقه استنهاض الشعب ودعوته إلى مبادئ العلم والتحضر والثقافة، فأنشد قصائد كثيرة دعا فيها مواطنيه إلى العلم، فبيّن فوائده ودعا إلى إنشاء المدارس والمعاهد العلمية وأشار إلى منزلة العلم، وأشاد بشأن المعلم في المجتمع الإنساني و... فيقول في قصيدته «معترك الحياة»:

ولـيسَ الغِـنى إلاّ غِـنى العِلـمِ إنـه لَنـورُ الفـتى يَجلـو ظِـلامَ افتقـاره

(م.ن، ص١٠٠)

يعتقد الرّصافي بأن الغنى الحقيقي هو غنى العلم لا المال. ومن هنا يشير إلى أهمية العلم ودوره في حياة الناس، ثمّ يشير إلى موضوع هام وهو وجوب اقتران العلم بالأخلاق الفاضلة، فالعلم الذي لا يقترن بمكارم الأخلاق، لا ينجي الناس، وكذا العلم الذي ليست فيه محاسن الأخلاق لا يُرجى به أمل، فهو في قصيدته «إلى أبناء المدارس» يشير إلى فضل العلم قائلا:

كفـى بِـالعِلمِ في الظلمـاتِ نـورا يُبـيّنُ في الحَيـاةِ لنـا الأمـورا
فكـم وَجَـدَ الـذَليلُ بـهِ اعتـزازا وكَـم لـبسَ الحـزينُ بـهِ سـرورا
تزيـدُ بـه العُقـول هُـدى ورشـدا وتسـتعلي النفـوسُ بـه شـعورا

(م.ن، ص١٤٧)

الشاعر في هذه الأبيات يشبه العلم بالنور، وكما أنّ النور يبين الطريق للناس في الحياة ويرشدهم لكي يسلكوا الطريق بسلامة، فالعلم يعطي الذليل، العزّةَ والرفعة ويسبب العُلوّ والمعرفة، فللمدارس والمعاهد العلمية دور هامّ في بناء المجتمع الإنساني الفاضل ويقول:

إذا مـا عَـقَّ مـوطنَهم أنـاسٌ ولم يُبنـوا بِـهِ لِلعِلـمِ دورا
فـإن ثيـابَهم أكفـانُ مَـوتى ولـيسَ بُيـوتُهم إلاّ قبـورا

(م.ن)

فالمجتمع الذي لا دورَ فيه للعلم والدراسة، يشبه المقابر والجبّانات، والناس في مثل هذا

المجتمعات ليسوا سوى الأموات، وثيابهم في الواقع أكفانهم، وبيوتهم قبورهم، ولا يحق لهم إلا الضنك والهلاك طيلة حياتهم. ويجب أن يكون العلم مقروناً بالأخلاق الفاضلة:

فـــلا تســـتنفِعوا التعلـــيمَ إلاّ إذا هَـــذبتم الطبـــعَ الشـــريرا
ألا يـا ابـنَ العِـراقِ إليـكَ أشـكو وفيـكَ أمـارِسُ الـدّهرَ المَكـورا
تَـنَفَّض مـن غُبـارِ الجَهـلِ واهـرَع إلى تِلـكَ المَـدارِسِ مُسـتجيرا

(م.ن)

فبفضل العلم يصبح العاجز قديرا والفقير غنيا والضعيف قويا، ولكن العلم وحده وبدون اقترانه بالفضائل الأخلاقيه ما يهدي الناس، بل يسوقهم إلى الضلال والظلام، فلا فائدة له إلاّ إذا دخل واستقرّ في النفوس المهذبة، ثم يخاطب أبناء العراق داعيا للذهاب إلى المدارس. فيقول:

أدبُ العِلـــــمِ وعِلـــــمُ الأدب شَـرَفُ الـنفسِ ونفـسُ الشّـرف
بهمـــا يَبلـــغُ أعلـــى الرّتـــب كـــلُّ رامٍ مِنـــهُما في هَـــدَف
فـــإذا شِـــئتَ بُلـــوغَ الأرَب فـاغتَرِفْ مِـن بَحـرِهِ وارتشِـفْ
فالمَعـــالى أودِعَـــتْ في الكتـــب كـــاللآلى أودِعَـــتْ في الصّـــدف

(م.ن، ص١٨٦)

فهو بعد الدعوة إلى العلم يذكر العرب بمجدهم الغابر وماضيهم المنير ويشير إلى مكانة العلم في تلك العصور الخالية، ويتحسّر على تلك الأزمنة، ثم يدعو أبناء وطنه إلى اكتساب العلم ويشمتهم بسبب نومهم وبعدهم عن الحضاره والرقي:

يـا بَـني يَعـرِبَ مـا هـذا المَنـام أوَمـــا أســـفَرَ صُـــبح النـــوّمِ
أفَـــلا يَلـــذعُكم مِـــني المَـــلام فَلقـد ألفَـظَ جَمـراً مِـن فَمـي
وأعِـدّوا العِلـمَ لا السّـيفَ الجُـراز أنـــه عُـــدَّةُ هـــذا الـــزّمن
إنّـــهُ واللهِ لا عَـــن كَـــذِب شـرفُ الـنفسِ ونَفـسُ الشّـرَف

(م.ن، ص١٨٧)

مثل هذه القصائد كثيرة في ديوان الشاعر، منها: «في المعهد العلمي» (م.ن، ص٢١٢)، «في المدرسة: دار التفيض» (م.ن، ص٢٤٦)، «المدارس ونهجها» (م.ن، ص٢٥٠)، «العلم والإجازة فيه» (م.ن، ص٢٥٥)، «الأمة العربية ماضيها وباقيها» (م.ن، ص٣٨٥)، «العلم» (م.ن، ص٢٦٢)، «إلى المتعلم» (م.ن، ص٤٣٥)، «المجلس العمومي» (م.ن، ج٢، ص٢٣٧)، «إلى الأمة العربية» (م.ن، ج٢، ص٢٤٥)، «العلم والعَلَم» (م.ن، ج٢، ص٣٦٢)، «السجايا فوق العلم والعلَم» (م.ن، ج٢، ص٣٦٧) و

«منزلة المعلم في المجتمع الإنساني» (م.ن، ج٢، ص٥٤١). وفي جميع هذه القصائد يتطرق الشاعر إلى موضوع العلم وفوائده والدعوة إليه والإبتعاد عن الجهالة. وكثرة هذه القصائد في ديوانه تشير إلى أهمية الموضوع عند الشاعر، فمن أراد فعليه الرجوع إلى الديوان.

الدعوة إلى الحرية

الاهتمام بالحرية أيضاً من الموضوعات التي يتطرّق إليها الرّصافي في أشعاره حبّاً لوطنه فهو يعتقد أنّ هذا الأمر موضوع مقدس، سواء كانت حرية فردية أو حرية اجتماعياً، فهو يعتبر نفسه حرا، ولهذا السبب لا يخاف من ظلم الحكام والمستبدين وأصحاب القدرة. فهو كان يؤمن بحرية الفكر ويعتبر أن حق الإنسان بها حق مقدس، ويخلص لها أشد الإخلاص، ولعل تمسكه بها كان من أهم الأسباب التي جعلته مضطهدا من قبل الحاكمين. له قصيدة عنوانها «في سبيل حرية الفكر» فيقول فيها:

كتبتُ لنفسي عَهدَ تحريرِها شِعرا ... وأشهدتُّ فيما قد كتبتُ لها الدّهرا
ومِن بعدِ إتمامي كِتابةَ عَهدِها ... جعلتُ الثريا فوقَ عُنوانِها طغرا

(الرّصافي، ١٩٨٦، ج١، ص١٤١)

فهو يبدأ بتحرير نفسه، ولا يكتب شعرا إلاّ بعد هذا التحرير، فالشاعر لا يخفي كلامه، بل يجهر به، ومصدر هذه الجهارة حريته، فيجرّد شعره من ثياب الرياء، ولا يقول إلاّ الحق والصواب وإن كان كلامه يثير غضب بعض الناس وأنتسابهم إياه بالكفر، أما الكفر في رؤيته لا يكون إلاّ كتمان الحق وعدم الإقرار به:

وجرّدتُ شعري مِن ثيابِ ريائِه ... فلم أكسه إلاّ معانيَه الغُرّا
فجاءَ مضيئاً ليله كنَهارِه ... وإن كان بَعضُ القومِ يزعَمُه كفرا

(م.ن)

على رأي الشاعر أن الكفر الحقيقي هو كتمان الحق أوجعله مقلوبا وعلى غير ما يكون عليها، وأحسن شيء للحقيقة تعريتها من كل ستر أوغموض وألاّ يحول دونها شيء، ثم يتطرق إلى حرية الفكر ويتغنى بها:

هل الكفرُ إلاّ أنْ ترى الحَقّ ظاهرا ... فتضربَ للأنظار مِن دونه سِترا
إذا كانَ في عرى الجُسومِ قباحة ... فأحسنُ شيءٍ في الحقيقة أن تَعرى

(م.ن)

فأحسن شيء للرجل أن يكون مستقلا وحرا في أفكاره وآرائه، وإلاّ فلا فرق بينه وبين الأسير المقيد في الأغلال والسلاسل. والوطن في رأي الشاعر لا يصل إلى الحرية السياسية ما لم يستقل أبنائها في تفكيرهم وحريتهم:

إذا كان في الأوطانِ للناسِ غايَةٌ فحريَّةُ الأفكارِ غايَتها الكبرى
فأوطانُكم لن تستقلَّ سياسَةً إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا

(م.ن)

فحرية الفكر تمهد السبيل للحرية السياسية، ثم يخاطب الرّصافي حريته الشخصية ويجعلها قبلته التي يوجه وجهه كل يوم لها عشرا ويجعلها مؤنسه في الوحشة وبدره في الليالي المظلمة وحجته المقدسة وركنه الذي يتبرك به:

أحُرّيّتي أني اتخذتك قِبلة أوجّه وجهي كلّ يَومٍ لها عَشرا
وأمسِكُ منها الرّكنَ مُستلِماً له وفي رُكنِها استبدَلتُ بالحَجَرِ الحِجْرا

(م.ن، ص١٤٢)

فالحرية في ديوان الشاعر هو الصديق المرموق المضاع الذي يبحث عنه الشاعر في أشعاره ويرجو لقاءه ويطلب منه الرجوع إلى بلده، ويتطلب من أبناء وطنه الكفاح والجهاد في سبيل الوصول اليه.

الاشتراكيه في وجهة نظره

كانت غاية مبادئ الاشتراكية هي تخليص الطبقة الكادحة من قبضة المالكين والرأسماليين والدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي وتحقيق الرخاء لأبناء الشعب دون تمييز بينهم، لا من حيث الدين ولا من حيث الحسب والنسب ولا من حيث الثروة. فبرز وظهر تيار الاشتراكية في أوربا وكان هذا التيار يجد صدى لدى المفكرين الشرقيين في أواخر القرن التاسع عشر، لأنهم يرغبون في إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة إلى المساواة دون أن يفكروا في تغليب طبقة على طبقة أو تسليم الحكم إليها ودون أن يفكروا مسها للدين، فهي مجرد نزعة إصلاحية وشعف «كثير من الشعراء في وقت مبكر بالدعوة الاشتراكية، مثل شوقي وأحمد الكاشف والرّصافي وحافظ إبراهيم» (عز الدين، ١٩٨١، ص٤٠).

ولكن علينا أن نشير إلى أن الرّصافي ليس من دعاة الاشتراكية وأصحابها. لا، بل أخذ من الاشتراكية ما يلائم المجتمع وطبعِه الإسلامي ويدعو إليه. للرصافي قصيدة عنوانها «آل

السلطنة» يعالج فيها إحدى آفات المجتمع والتي تتعارض تماما مع تعاليم الإسلام من جهة ومبادئ الاشتراكية من جهه أخرى، وهي وجود الطبقة البرجوازية أو الطبقة الحاكمة الثرية، وبعدهم من التكسب والسعي؛ فهو يعارض هذه الآفة الاجتماعية ويرفع صوته ويقول لماذا هذا؟ وحتى متى يكون الشعب تحت نيران ظلمهم وتعسفهم؟ فيقول في وصفهم:

| | |
|---|---|
| هــم يُعـــدّون بالمئـــاتِ ذكـــورا | وإناثـــاً لهـــم قُصـــورٌ مشـــاله |
| تركـوا السّعي والتكسّب في الدنــ | ــيا وعــاثوا علــى الرّعيــة عالــه |
| فكـــأنّ الأنـــامَ يشـــقون كـــدّاً | كـي تنـالَ النعـيمَ تلـك السّـلاله |

(الرّصافي. ١٩٨٦، ج٢، ص٢٧٦)

فهو لا يرضى أن ينعم هؤلاء في الرفاه والترف وأن يعيشوا في ملذات الحياة مع أنّ أكثر الناس في مجتمعه يعيشون في جوع وألم وفقر وحرمان، فيديم قوله بعد وصف تلك الحالة المؤسفة:

| | |
|---|---|
| تلـك واللّهِ حالـةٌ يَقشـعرُّ الحـقُّ | مِنـــــها وتَشـــــمَئِزّ العَدالـــــه |
| هـــي مِنـــهم دَنـــاءَةٌ وشَـــنارٌ | وهـــي مِنـــا حماقَـــةٌ وضَـــلاله |
| لـيس هـذا في المَذهَبِ الإشتراكيـ | ـــةِ إلا مِـــن الأمـــورِ المَحالـــه |
| وهـــو في الملـــةِ الحَنيفيـــة البَيـــ | ـضاءِ كفـرٌ بربّنـا ذي الجَلالـه |

(م.ن)

فنلاحظ أنّ الدعوة إلى الاشتراكية ملازمة عنده مع الدعوة إلى التمسك بتعاليم الدين، فالشاعر ينظر إلى تعاليم الاسلام أكثر من أن ينظرَ إلى الاشتراكية وتعاليمها، نعم في بعض الاحيان يدعو إلى بعض تعاليم الاشتراكية التي لا تعارض الدين المبين وبهذا السبب بعد ذكر الاشتراكية يشير مباشرا إلى الدين الحنيف. فوجوب التعاون في البلاد ورعاية المعوزين والفقراء من مختلف طبقات الشعب أيضا يُعدّ من المبادئ والأسس الاسلامية ويؤيدها الرصافي تحت لواء الاشتراكية، فيقول في قصيدة «الحياة الاجتماعية والتعاون»:

| | |
|---|---|
| ولم يُصـــلحْ فِســـادُ النـــاسِ إلاّ | بمـــالٍ مِـــن مَكاسِـــبهِم مُشـــاع |
| تشـــادُ بِـــهِ المَلاجِـــىءُ لليَتـــامى | وتُمتـــــارُ المَطـــــاعِمُ للجيـــــاع |
| وتـــبنى لِلعلـــومِ بـــهِ مَبـــان | تفـــيض العِلـــمَ مُؤتلِـــقَ الشـــعاع |
| وإلاّ فالشـــقاءُ لهـــم حَليـــف | ومـــا حَمـــلُ الشّـــقاءِ بمُســـتطاع |

(م.ن، ج١، ص٢٣٥)

يقول أحمد أبوحاقة: «ففي هذه الأبيات إشارة صريحة إلى بعض تعاليم الماركسية

المتعلقة بشيوع الأموال لاستخدامها في بناء المرافق العامة وإقامة المؤسسات الاجتماعية التي تؤمن للمحرومين عيشهم، وتقدّم العون لكل محتاج وتحقق ما يسمى بالضمان الاجتماعي الكامل على صعيد الدولة» (أبوحاقة، ١٩٧٩، صص٢٠٠-٢٠١).

وآخر قضية من القضايا الاشتراكية التي تطرق إليها الشاعر في أشعاره هي «تمجيد العمل والعمال والعطف على الكادحين وعلى الطبقات الدنيا من الشعب» (بقاعي، ١٩٩٤، ص٨٨). فهو في قصيدته «إلى العمال» يقول:

كلّ ما في البلادِ مِن أموال ... ليس إلاّ نتيجَة الأعمال
إن يطبْ في حياتِنا الإجتما ... عيّةِ عَيشٌ فالفضلُ للعُمّال
وإذا كانَ في البلاد ثَراءٌ ... فبفَضلِ الإنتاجِ والإبدال

(الرّصافي، ١٩٨٦، ج١، ص٤٩٧)

فهو يأخذ من الاشتراكية ما يكون صحيحا في رأيه وما يخالف تعاليم الإسلام، فالرصافي ليس من دعاة الاشتراكية بل يدعو إلى بعض تعاليم الاشتراكية التي لم تعارض تعاليم الإسلام، فالزكاة بزعم الشاعر ليست سوى وجه من وجوه الاشتراكية، والعمل واجب على كل أفراد المجتمع ولو كان الشخص من عظام الرجال وما رؤوس الأموال سوى أداة للوصول إلى المساعي المفيدة الحميدة والإنتاجات النافعة كما يستفاد الحمل للأحمال، وفي النهاية هو لا ينظر إلى الاشتراكية إلاّ من نضّارة الإسلام، ولا يوافق إلاّ ما يجب أن تكون يتلائم فيها مع الإسلام، وبعبارة أخرى يبدو أنّ نزعة الشاعر إلى الاشتراكية تنبع من إيمانه ببعض مبادئ هذا المذهب الفكري الذي لا يضادّ تعاليم الإسلام من جهة وعدم تعمقه في أصول وأركان الاشتراكية الأصلية من جهة أخرى، فيمكن أن يكون فهمُ الشاعر من هذا المذهب الغربي فهماً بسيطاً سطحياً. ويمكن أن نقول أنّ الرصافي ليس من دعاة الاشتراكية أبدا، بل يرى فيها ما يلائم نزعته الوطنية ـ الاجتماعية ـ الإسلامية، فاستفاد منها كوسيلة في سبيل الوصول إلى هدفه.

ماضي العرب ومستقبلهم في نظره

يحبّ الرّصافي الوطن العربي، فهو يرى واقع العرب المرّ وما كانوا فيه من جهل وتعصب وفقر وفاقة، فمن جهة يعيش الناس في أسوء الأحوال وظلام الجهل والحرمان الذي يخيّم عليهم، ومن جهة ثانية يسيطر عليهم الحكام الظلمة المستبدون، سواء في ظلال الحكم العثماني أو في عهد احتلال العراق أو زمن الانتداب أو قل الاحتلال غير المباشر، ومن جهة ثالثة يرى الشاعر أيدي

الاستعمار تقف وراء كل حادث يحدث في بلده، وتسوق الناس خطوة تلو الأخرى إلى السقوط والانحطاط أكثر فأكثر. فهو يرى كل هذا، والحال خلد في ذهنه مجد العرب الغابر، يوم كانوا هم من أقوى الدول، وطار صيتهم وصيت اقتدارهم وسلطانهم على أنحاء العالم.

فرأى الرّصافي أنّ على عاتقه وظيفة خطيرة، وهي التذكار بماضي العرب المجيد واستنهاض نفوس العرب لبناء مستقبل أفضل، الذي سيكون العرب فيه كما كان من قبل، وما كان منه إلاّ حبّاً للوطن العربي. فأنشد قصائد عديدة، تخطو فيها لتحقيق هذه الأمنية، لذلك يذكر افتخارات الأقدمين العلمية في أشعاره «لإثارة العزّة القومية في نفس الشعب الغافل الخانع، ويقرنون الماضي المجيد بالحاضر القاتم ليوقظوا في الشعب روح التذمّر وينبهوا وعيه» (عيسى وآخرون، ١٩٩٠، ص٢٤).

فنلاحظ أنّه يشير في قصيدته «نحن والماضي» إلى مجد العرب الغابر بعد ظهور الاسلام:

ومُـذ قـامَ إبـنُ عَبـدِاللّهَ فـيهم ... أقـامَ لكُـلّ مَكرُمَـةٍ عَمـودا
وأنهَضَـهُم إلى الشّـرَفِ المُعلـّى ... وكـانوا عنـه قبلئِـذٍ قعـودا
فهُـم فتحـوا الـبلادَ ودَوّخوهـا ... وقـادوا في مَعارِكهـا الجُنُـودا

(الرّصافي، ١٩٨٦، ج١، ص٩٣)

فهو أشار إلى بعثة النبي ﷺ ، وقال: منذ أرسله الله تعالى لهداية الناس، أخذ العرب والمسلمون يتقدّمون يوما بعد يوم، وخطوا خطوات واسعة في هذا الطريق، فكانوا من أشد الناس بأساً وفتحوا البلاد واستولوا على أهلها، وعلى كلّ حال صاروا من أعظم دول العالم، ثقافة وعلما وحضارة وقدرة. ثم يستنهض نفوس العرب ويدعوهم إلى السير في سبيل التقدم ويقول:

ولكـنْ أيّهـا العَـرَبي إنّـي ... أراكَ لِغـيرِ مـا يُجـدي مُريـدا
ومـا يُجـدي افتخـارُكَ بـالأوالي ... إذا لم تفتخِـر فخـراً جَديـدا
فَوَجِّـهْ وَجـهَ عَزمِـكَ نَحـوَ آتٍ ... ولا تلفِـتْ إلى الماضـينَ جيـدا

(م.ن)

فهو بعد ذكر أمجاد العرب في الماضي يخاطب أبناء أمته ويدعوهم إلى التقدم في الحياة، ويسألهم إذا لم يكن لكم فخر جديد في حياتكم فما هي الفائدة في الافتخار بالأقدمين وبانتصاراتهم وأمجادهم البالية، ويقول لهم لا تلفتوا في هذا الأمر إلى الماضي، بل وحّدوا صفوفكم، واخطوا في سبيل مستقبل حافل بالأمجاد والانتصارات.

ونظير هذا الموضوع مشهود في كثير من قصائد الشاعر. فالموضوع واحد وهو بيان ماضي العرب المنير وحسرة الشاعر على تلك الأزمنة المنيرة وتحسره على ما يكون فيه العرب من التخلّف في عصره واستنهاض نفوسهم وحثهم على التقدم والسير في طريق الرقي والثقافة.

من القصائد الأخرى التي عالج فيها الشاعر هذا الموضوع هي: «معترك الحياة» (معروف الرّصافي، ١٩٨٦، ج١، ص١٠٠)، «إلى الشبان» (م.ن، ص١٠٦)، «في المعهد العلمي» (م.ن، ص٢١٢)، «في المدرسة: دار التفيض» (م.ن، ص٢٤٦)، «الأمة العربية ماضيها وباقيها» (م.ن، ص٣٨٥)، «خزانة الوقاف» (م.ن، ص٤٧٠)، و«إلى الأمة العربية» (م.ن، ج٢، ص٢٤٥).

المرأة وما يتعلق بها في العراق

المجتمع الإنساني يتشكل من الرجال والنساء وكلّ مجتمع لا يُعطى فيه حقوق النساء ولم يهتم بهما معاً بشكل يناسب شأنهما فهو مشبه بالإنسان الذي أصيب نصف جسمه بالفالج، ولا يتمكّن له أن يصل إلى الرّقيّ والحضارة. ونلاحظ أنّ المجتمع العراقي في زمن الشاعر كان يعاني من هذه البليّة، وليس للنساء شأن يذكر فيه. فالرصافي بصفته شاعر ملتزم، رأى وأدرك هذا الأمر، ولم يستطع أن يسكت قباله، فتوجه إلى النساء وأوضاعهن في وطنه بسبب حبه له، وأراد أن يبين أوضاع النساء السيئة فيه ويشير إلى مواضع الدواء لكي يصل إلى وطن أفضل مما هو فيه. فلذا إنّ قضيّة المرأة تُعتبر من أهمّ الموضوعات التي عالجها الرّصافي وتطرق إليها في أشعاره، فهو فيها يتحدّث عن أوضاع المرأة في بلاده؛ عن تربيتها، وعن زواجها وطلاقها، وعن حجابها وكل ما يتعلّق بشؤونها. فنلاحظ أنّ للشاعر في هذا الموضوع عدّة قصائد، فندرس الآن بعضها لنلم بعض الإلمام على عقائده وآرائه في هذا المجال. فهو يصف في أشعاره المرأة العراقية مَرأة ضعيفة ذليلة، وعلى رأيه إنّ هذه الصفات لا تكون صفة ذاتية لها، بل تكون من صفاتها السلبية التي تلبّست بها بسبب الظلم العظيم عليها؛ فيلوم الرجال بأنهم يستغلّون من هذا الضعف الذي هم مسببوه، فيقول في قطعة له، عنوانها «هوان المرأة عندنا»:

ما أهوَنَ الأنثى على ذكرانِنا ... فلقد شجاني ذلّها وخُضوعُها
ضَعُفَتْ فحُجّتها البُكاءُ لخَصمِها ... وسِلاحُها عِند الدّفاعِ دُموعُها
هي مُتعَةُ المُستمتِعينَ وليتَها ... كانَت لِزاماً لا يَجوزُ مَبيعها
فوليُّها عندَ الدِّفاع يَبيعُها ... وحَليلها عِندَ الطلاقِ يضيعُها

(الرّصافي، ١٩٨٦، ج٢، ص١٥٩)

فهي ذليلة ضعيفة بين يدي أبيها وزوجها، وليس لها سلاح في الدفاع عن نفسها إلاّ البكاء، وهي وسيلة لأن يتمتّع بها الرجال. هذا شأن المرأة المضطهدة في المجتمع الإنساني الفاسد في زمن الرّصافي. ثم يتطرق إلى كيفية حياة المرأة العراقية بين الرجال، فيقول في قصيدته «المرأة المسلمة»:

لم أر بَـينَ النـاس ذا مَظلمَـه ... أحَـقُّ بالرّحمَـةِ مِـن مُسـلِمَه
قـد جَعلـوا الجَهـلَ صِـواناً لهـا ... مِـن كـل مـا يَـدعو إلى المأثمـه
والعِلـمُ أعلـى رتبـةً عنـدَهم ... مِـن أن تلقّـاه وأن تعلمَـه

(م.ن، ص١٤٠)

فهي مظلومة حقا، لأنها لا تتمكّن من اكتساب المكارم والعلوم، فكأن الجهل صوان لها، أو العلم أعلى رتبة ومنزلة من أن تتعلّمه المرأة. وبعد هذه الأبيات يتطرق إلى معاشها في المجتمع، فهي لا تستطيع أن تعمل فيه مستقلة؛ لأن القوم يعيبونها ويرون سعيها في طلب الرزق ملامة، فهي بعد موت بعلها لا تجد طريقا لاكتساب القوت، فالشاعر يرفع صوته «مناديا بأن وضع المرأة المسلمة ليس طبيعياً ولا شرعياً ولا قانونياً، وأن الإسلام نادى بحرية المرأة ومشاركة المرأة ونضال المرأة وتكريم المرأة» (بقاعي، ١٩٩٤، ص٩٥). فيصرخ ويهتف:

فهـذه حالـةُ نسـوانِنا ... وهـي لعَمـري حالـةٌ مُؤلِمَـه
مـا هكـذا يـا قـومِ مـا هكـذا ... يأمرُنـا الإسـلام في المُسـلِمَه

(م.ن)

الأمر الذي يلفت أنظارنا في هذين البيتين هو تَطرُّقُ الشاعر إلى ما يأمرنا الإسلام بتكريم النساء، ويوصينا بالاهتمام بها في كثير من الأحكام الشرعية. وفي البيت الثاني يطلب الشاعر من أبناء قومه بصورة غير مباشرة الرّجوع إلى تعاليم الإسلام القيّمة، فيما يتعلّق بالمرأة، لا بما رسخ في أذهانم ويعتقدون أنها من الإسلام. فهو في هذا المجال يصرخ على كيفية وضع زواج المرأة في مجتمعه وما يتبعه من عقائد مزيّفة وخرافية وباطلة، فيقول في قصيدته «حرية الزواج عندنا»:

ظلمـوكِ أيّتـها الفتـاةُ بجَهلِهـم ... إذ أكرهـوكِ علـى الـزّواجِ بأشـيبا
طمعـوا بـوَفرِ المـالِ منـهُ فـأخجلوا ... بفضـولِ هاتيـك المَطـامعِ أشـعبا
إنّ الكريمـةَ في الـزّواج لحُـرَّةٌ ... والحُـرُّ يـأبى أن يَعـيشَ مُذبـذبا
قلـبُ الفتـاةِ أجَـلُّ مِـن أن يُشـترى ... بالمـال لكـن بالمحبّـةِ يُجـتبى

(م.ن، ص١٣٥)

فهو في هذه الأبيات ينادي بحماية الفتيات، ويخاطبهنّ في بداية القصيدة بأنّهنّ يُجبرن على الزّواج، جهلا مع أنّه يعتقد بأن الزواج يجب أن يكون على قاعدة المحبة والصداقة والعشق والكفائة بين الزوجين. والفتاة الكريمة هي التي تكون حرة في اختيار زوجها وانتخابها، والذين يكرهونها على انتخاب الزوج بسبب ثراء الزّوج وغنائه فهم في الحقيقة ارتكبوا ظلماً فاحشاً في حقها. ثم يذكر بعض ميزات الزواج المكروهة في زمنه فيقول:

وإذا الـزّواجُ جَـرى بغَـيرِ تَعـارُفٍ وتَحَبُّـــبٍ فَـــالخَيرُ أنْ نَترهَّبـــا

هــو عِنــدَنا رَمــي الشّــباكِ بلجّــةٍ أتصـيبُ أخبَـثَ أم تصـادفُ أطيَبـا

(م.ن)

فلاحظنا أنّ فقدان معرفة الزّوجين بالنسبة إلى كلّ واحد منهما وعدم حرية الفتاة في اختيار زوجها وثقل مهر الفتاة، مما لا يُحمد ولا يُحسن عنده. وباعتقاده أن الصّداق لا يكون إلاّ حبّها، فإذا كان الزّوج حبيباً لزوجه فهو أفضل مهر لها. ثمَّ يُشير إلى أنّ الوطن الذي لم تنهض فيه نساؤه فهو يُشبه الشخص الذي أصيب نصف جسمه بالفالج، فكما أنّ هذا الشخص لا يستطيع أن يحفظ جسمه ويعيش عيشا سالما في الدنيا، فهكذا، إن المجتمع الذي لم تنشأ نساؤه على الثقافة والحضارة، لا يستطيع أن يحفظ ويدوم بقائه.

هناك لشاعرنا في بيان حالة النساء وما يتعلّق بهنّ من المشاكل والآلام والآمال والأحلام قصائد كثيرة لا مجالَ لذكرها في هذا المقال، وليس هذا إلاّ بسبب حبّه لمجتمعه والتزامه بقضايا عصره وحبّه لوطنه. من هذه القصائد: «العادات قاهرات» (م.ن، ج١، ص٣١٦)، «الأرملة المرضعة» (م.ن، ص٥٦٩)، «أم الطفل في مشهد الحريق» (م.ن، ص٧٩٧)، «ثالثة الأثافي» (م.ن، ص٨٠٤)، «من ويلات الحرب» (م.ن، ص٥٨٧)، «المرأة في الشرق» (م.ن، ج٢، ص١٢٥)، «نساؤنا» (م.ن، ص١٣٢)، «التربية والأمهات» (م.ن، ص١٤٤)، «إلى الحجابيين» (م.ن، ص١٥٧).

كارثة اليتم في المجتمع العراقي

قد مرّ بنا التزام الرّصافي أمام حوادث مجتمعه وحبّه لوطنه، فيهزّه كلّ ما يراه من مناظر البؤس والشقاء في بلاده، من هذه المناظر واللوحات المؤسفة هي مشكلة اليتامى وما يلمّ بهم من البؤس والفقر و...، فله عدّة قصائد في هذا الصدد، يتطرق فيها إلى أوضاعهم ويعطف عليهم ويشيد باللذين يهتمّون بأمورهم، من هذه القصائد «اليتيم في العيد» (م.ن، ج١، ص١٦٥)، التي تشبه قصة صغيرة شعرية، فهو يقول في قصيدة صباح العيد: إنّ الأغنياء في أغلب الاوقات فرحون ومسرورن والفقراء في كثير من الأزمنة محرومون ومحزونون، ثم يصف

خروجه صباح عيد من الأعياد من بيته وما رآه من سرور الناس وفرحهم يوم العيد ولكن ما لبث أن يتطرّق إلى وصف اليتيم في صباح العيد، فهذا الطفل ينظر إلى ابتسام الناس وأفراحهم بالحسرة والبكاء، فالشاعر يتكلم مع الطفل ولكنّه يهرب إلى بيته فيعقبه الشاعر ويدخل معه البيت ويرى ما يرى فيه من فقر ساكنيه... بعد ذكر هذه الوقائع المؤسفة ينشد:

فلا غَرو مِن أمّ اليتيمِ إذا غَدَت ضُحَى العيدِ يَبكيها اليَتيمُ المُضَيّع
ألا ليتَ يَومَ العيدِ لا كانَ أنه يُجدِّدُ للمحزونِ حُزناً فيجزَع
فمِن بؤساءِ الناسِ في يومِ عيدهم نُحوسٌ بها وجهُ المَسَرَّةِ أسفع
قد ابيضَّ وجهُ العيدِ لكنّ بؤسَهم رمى نُكتاً سوداً بهِ فهو أبقع

(م.ن)

ثم يدعو أبناء شعبه إلى حماية اليتامى ويذكرهم بماضيهم المنير، ويريد منهم النهوض والوقوف أمام الحكام والمستبدين للوصول إلى العدالة الاجتماعية. للرصافي في هذا الموضوع عدّة قصائد أخرى، يدعو في جميعها إلى الشفقة على الأيتام، ويشيد بفضل الذين يحمونهم ويبنون لهم المدارس وغير ذلك من الرفاهيات ووسائل العيش؛ من هذه القصائد: «أم اليتيم» (م.ن، ص١٠٩)، «دار الأيتام أو مدرسة شلنر في القدس» (م.ن، ص٢٦٨)، «الإحسان» (م.ن، ص٦١٦) و«اليتيم المخدوع» (م.ن، ص٤٣٩).

الأطفال وأوضاعهم في العراق

من الموضوعات التي يهتم بها الشاعر ويتطرق إليها في أشعاره موضوع الأطفال وأوضاعهم وأحوالهم في المجتمع، فهو يشيد في قصائده بالذين يحمون الأطفال ويبنون لهم الأبنية لحمايتهم وذودهم أمام آفات الدهر ومصائبه وملمّاته، ففي قصيدته «الحياة الاجتماعية والتعاون» التي أنشدها في حفلة تأسيس جمعية حماية الأطفال في بغداد سنة ١٩٣٨م يقول:

وممّا سَرَّني أنّي أناجي رِجالاً في الفِخارِ ذوي ابتِداع
سَعوا لِحمايَةِ الأطفالِ منا بما أتَوهُ مِن كَرَمِ الطباع
فقاموا بالذي يُعلي ويُسلي يَصونونَ الضّعافَ مِن الضّياع
وما سادَتْ شُعوبُ الخَلقِ إلاّ بتهيئَةِ البنينَ لذا الصّراع
إذا لم يُعنِ بالأطفالِ قَومٌ فهضبةُ مَجدِهِم رهنُ انصداع
ولا تزكو المَناشيءُ في أناس يَرونَ الطفلَ مِن سَقطِ المَتاع

(م.ن، ص٢٣٥)

فالأطفال هم الذين يشكلون أركان الوطن ويبنون أسس المجتمع في المستقبل، وبما أنّ هذه الحياة ليست إلاّ صراعا حربيا أو سياسيا أو اقتصاديا أو... فعلى أبناء الوطن أن يهيئوا البنين لهذا الصراع المصيري، وإلاّ فعليهم أن ينتظروا الفشل والتكسر في حياتهم في المستقبل. وله في هذا المجال قصيدة أخرى عنوانها «إلى حماة الأطفال» (م.ن، ص٧٣٧) يمدح فيها الذين يحمون من الأطفال، اليتامى، ويبنون لهم المدارس والأمكنة لتعليمهم والذود عنهم وتربيتهم.

مشكلة الفقر في المجتمع

من الموضوعات التي تطرق الشاعر إليها في قصائده ولها أهمية بالغة وكبيرة في أشعاره حبّاً لوطنه، هو موضوع الفقر والفاقة، لأنّ هذه المشكلة توجب انهيار البلاد، فهو يرى طبقة البائسين والمستضعفين في المجتمع من اليتامي والأرامل والفقراء والمعوزين «وما كان شيء يؤذي نفسه مثل الفقر والعوض وأن يشبع الغني ويلبس الاستبرق والحرير ويجوع الفقير ويعرى وإن لبس لم يلبس إلاّ ثوبا أخلاقا ممزّقا» (ضيف، د.ت، ص٦٨). فهو لا يتمكّن من السكوت، فيقول: إنّ الغنى ما يأكل طعاماً وما يشبع وما يلبس ثياباً غالية إلاّ من كد يمين الفقير وعرق جبينه:

أرى كُلَّ ذي فَقرٍ لدى كلّ ذي غِنى ... أجـيراً لــهُ مُسـتخدماً في عِقــاره
ولم يُعطِــهِ إلاّ اليَســيرَ وإنمــا ... علــى كَــدِّهِ قامَــتْ صُــروحُ يَســاره
ويلـبسُ مـن تذليلـهِ العـزَّ ضـافيا ... ويَنظــره شَــزراً بعــينِ احتِقــاره

(الرّصافي، ١٩٨٦، ج١، ص١٠٠)

فيصفه الشوقي قائلا: «وكأنه يرى الأغنياء جميعا تعاونوا على نهب حقوق الفقراء واغتصاب ما كسبته أيديهم، وإنهم ليبنون قصورهم على كواهلهم، ويقيمون مسراتهم وملذاتهم على أحزانهم وآلامهم وما بؤس البائس إلاّ جناية الغني، وإلاّ ثمرة طمعه وجشعه» (م.ن، ص٦٨)، فهو يشفق على الفقراء والمعوزين ويدعو أبناء شعبه إلى العطف عليهم وإعطائهم حاجاتهم ولو قليلا. يقول يوسف عزالدين في هذا الصدد: «وتقابل مشكلة الفلاح في القرى مشكلة الفقر في المدن... ولا تكاد تجد شاعرا من شعراء البغداد في القرن التاسع عشر، لم ينظم فيها وعلى رأس هؤلاء معروف الرّصافي، ففي ديوانه جزء ضخم عالج فيه المشكلات الاجتماعية بعامة والفقر بصورة خاصة، وقد عالجها متأثرا بالتعاليم الإسلامية، معتمدا على إرهاب الناس بالنار وعذاب اليوم الآخر، داعيا إلى إنصاف الفقراء والأرامل واليتامى...» (م.ن، صص٢٧-٢٨).

في كثير من الأحيان يعبّر الرّصافي عن الفقر في قصائده بالسقام والأمراض، لأنّ الفقر

يسبّب الأمراض وقصيدته «الفقر والسقام» هي أروع مثال لهذا الموضوع، فهو يحكي فيها حال رجل معسر المسمّى ببشير، وهو يعمل أجيرا طول النهار ويكسب قوتا زهيدا شاكرا لله ويعيش مع أخته التي لم تتزوج بعد، وهكذا دأب بشير إلى أن يعتريه داء المفاصل وعاقته عن اكتساب لقمة العيش، فأنفقت عليه أخته "فاطمة" كل ما ربحته من غزلها قبل أن ينزل ببشير الداء، ولكن سرعان ما نفدت الدراهم وذهبت فاطمة إلى جيرانها آخذة منهم قوتا قليلا له وهكذا الحال إلى أن مات بشير؛ فبكت فاطمة وخرجت من البيت مع البكاء، فتقرع باب جيرانها...، في الصباح لم تجد فاطمة ما تكفنه به إلى أوان زوال الشمس وغروبها حتى جاد شخص عليه بعد السؤال بريال ونصف ريال، ثم يقول الشاعر إنه يعبر عن «شارع الميدان» بعد مضي عامين من موت بشير، فيرى نعشا غير مغشى وعليه نَقَشَ الفقر والبؤس نقشا، ويسأل بعد دفنه من الذي دفن اليوم؟ فتصدّى له فتىً:

قــال إن الــدّفينَ أخــتُ بَشــير　　　أخـتَ ذاك المسـكين ذاكَ الفقـير
بَقيــتْ بعـــده بِعَــيشٍ عَســـير　　　وبِطـــرفٍ بـــاكٍ وقلـــبٍ كَســـير
وقَضَـت مِثلــه بِداءِ القــلاب

قُلتُ أقصِر عَن الكلامِ فَحَسبي　　　منــكَ هــذا فقَــد تزَلــزَلَ قلــبي
ثمّ ناجَيــتُ والضّــراعَةُ ثــوبي　　　ربِّ رُحمــاك ربِّ رُحمــاك رَبّــي
ربِّ رُشداً إلى الطريقِ الصواب

رَبِّ إن العِبـــادَ أضــــعَفُ أن لا　　　يَجِــدوا منــكَ ربِّ عَفــواً وفَضــلا
فاعفُ عن أخذِهم وإن كان عَدلا　　　أنــتَ يــا ربِّ أنــتَ بــالعفو أولى
منك بالأخذِ والجَـزا والعِقـاب

(م.ن، ص٢٧٣)

فهو في نهاية أبيات القصيدة، يلوم الأغنياء على ظلمهم ويعاتب الأثرياء على ركوبهم الملاهي ويدعوهم إلى الاهتمام بقضايا البؤساء والمحرومين ويتمنّى رفع عوزهم ومسح شقائهم، فهو يأمل لمواطنيه بعالم سعيد ومستقبل زاهر. فيخاطبهم قائلا:

أيّهــا الأغنيــاءُ كــم قــد ظلمـتم　　　نِعَــمَ اللهِ حيــث مــا إن رَحمــتم
سَــهَرَ البائســونَ جوعــاً ونمــتم　　　بهنــاءٍ مــن بعــدِ مــا قــد طعِمـتم
مِـن طعــامٍ مُنَــوّعٍ وشـــراب

كـم بَـذلتُم أمـوالكم في المَلاهـي وركبـتم بـهِ متـونَ السّـفاه
وبَخلـتم مِنـها بحـقٍّ الإلـه أيّهـا الموسـرونَ بعـضَ إنتبـاه
أفـتـدرون أنـكـم فـي تَـبـاب

(م.ن، ص٢٧٤)

كلّ هذه الملامح تدلّ على حُبّ الشاعر لوطنه واهتمامه الخاص ببلاده، فنحن نختم البحث بكلام من نفس الشاعر يبين فيه مدى حبه لوطنه الحبيب ومجتمعه الذي يعيش فيه، إذ يقول في وصيته: «كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشتُ فيه والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم، فلذا لم أوافق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة» (بقاعي، ١٩٩٤، المقدمة).

## النتيجة

نذكر بإيجاز أهمّ النتائج التي استنبطنا من هذه الدّراسة في النّقاط التالية:

١. لقد بحثنا في هذه المقالة بعض آراء الشاعر وعقائده في سبيل كفاحه الاجتماعي حيال كل ما يراه في مجتمعه من الضعف والتخلف والخمول والكسل، فلاحظنا أنّه كان ينظر بنظرته الثاقبة وأفكاره المتنورة إلى كل ما حدث على وطنه، فرأى أيدي الاستعمار والاستبداد يخفى وراء كل حادث مؤلم وكل تخلف مدمر في المجتمع العراقي، فهو وبصفته شاعر ملتزم، يلتزم في أشعاره الدفاع عن الوطن والمواطنين، وهذا يدل على شدة حبّه لوطنه.

٢. كثيراً ما لاحظنا أنّه كان يعارض في أشعاره كل ما يراه من الآفات الاجتماعية كأوضاع سيّئة للمرأة والأطفال والأيتام والأرامل والعمال والفقراء والمعوزين، ومن هنا تمّ الاستنتاج من نزعة الشاعر الوطنية والتزامه الاجتماعي أمام وطنه، مدى حبّه للوطن.

٣. شاهدنا أنّه بعد إيضاح مواضع الداء حاول أن يبين لأبناء وطنه الدواء لهذه الآفات الاجتماعية، فيدعوهم في شعره إلى الاتحاد واكتساب العلم وإلى التمسك بمبادئ الاشتراكية التي تتلائم مع الإسلام، ويطلب منهم الكفاح في سبيل الوصول إلى الحرية. وكان يُشجعهم لكي يواكبوا العصر الجديد ويعيدوا المجد الغابر ويبنوا للوطن مستقبلا أفضل.

٤. من خلال الدّراسة فهمنا أنّ رؤية الشاعر إلى طرق الإصلاح كانت من نظّارة الإسلام، فهو وإن مال في بعض الأحيان عن الإسلام وتعاليمه الحقة ـ بسبب تأثره بالأفكار المزيّفة التي استولت على الشرق الأوسط آنذاك ـ ولكن في كثير من آرائه وأفكاره الوطنية يتماشى مع الإسلام وتعاليمه في سبيل سعادة الوطن وأبنائه، كما رأينا هذا الموضوع في وجهة نظره إلى الاشتراكية أو في تعليم المرأة أو في اتحاد العرب أو في رعاية حال الأيتام والأرامل والمعوزين و... فهو يدعو في كثير من آرائه الوطنية والقومية إلى التمسك بتعاليم الإسلام والدين الحنيف.

٥. اتضح لنا من جوانب البحث أن حبّ الوطن لا يكمن في أشعاره فقط، بل يموج في كل كلمة أنشدها، فما له هدف في هذا السبيل إلاّ سعادة أبناء وطنه ووصولهم إلى أعلى قمم الرقي والحضارة.

## المصادر والمراجع


١. أبوحاقة، أحمد (١٩٧٩). *الالتزام في الشعر العربي*. بيروت: دار العلم للملايين.

٢. بطي، رفائيل (١٩٢٣). *الأدب العصري في العراق العربي*. القاهرة: المطبعة السلفية بمصر.

٣. بقاعي، إيمان يوسف (١٩٩٤). *معروف الرّصافي نار أم كلم*. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. البقاعي، شفيق (١٩٩٠). *أدب عصر النهضة*. بيروت: دار العلم للملايين.

٥. خفاجي، محمد عبدالمنعم (١٩٩٢). *دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه*. بيروت: دار الجيل.

٦. الدقاق، عمر (١٩٨٥). *الإتجاه القومي في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار الشرق العربي.

٧. الرّصافي، معروف (١٩٧٢). *ديوان الرّصافي*. شرح وتعليقات: مصطفى علي. ط٢، بغداد: وزارة الإعلام.

٨. ـــــــــــــ (١٩٨٦). *ديوان*. ط٣، بيروت: دار العودة.

٩. شرارة، عبداللطيف (دون تا). *الرّصافي*. بيروت: دار صادر.

١٠. ضيف، شوقي (دون تا). *دراسات في الشعر العربي المعاصر*. ط٥، القاهرة: دار المعارف بمصر.

١١. عيسى، سليمان؛ وآخرون (١٩٩٠). *الأدب العربي الحديث*. دمشق: المؤسسة العامة للمطبوعات والكتب المدرسية.

١٢. عزالدين، يوسف (١٩٨١). في الأدب العربي الحديث. ط٣، الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر.

١٣. الفاخوري، حنا (١٩٩١). *الموجز في الأدب العربي وتاريخه*. ط٨، بيروت: دار الجيل.

١٤. ـــــــــــــ (١٩٩٥). *الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)*. ط٢، بيروت: دار الجليل.